التداعيات السلبية لممارسات العنف على العمل الإسلامي

أحمد فهمي

باحث في الشئون السياسية

ملخص الدراسة

في إطار الحروب الغربية على قيم ومفاهيم الأمة، يكثر اللغط بشأن مفهوم الجهاد باعتباره مرادفًا للعنف، وتؤكد هذه الدراسة أن المصطلحين ليسا وجهين لعملة واحدة، بل هما ضدان مختلفان، فالأول: ذروة سنام الإسلام، في ممارسته حضورٌ للعزة، وغيابٌ للذلة، كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم. أما الثاني فهو مصطلح مائع يدل على ممارسات ينسبها أهلُها إلى الجهاد دون أن يترتب عليها جلبٌ لعزة أو دفعٌ لذلة، بل في أحيانٍ كثيرة يحدث العكس.

وترصد الدراسة التداعيات السلبية على العمل الإسلامي الناجمة عن ممارسة بعض الحركات الإسلامية للعنف من خلال ثلاثة مسارات: تشمل في طياتها الاتجاهات الرئيسة للتيارات الإسلامية -بحسب مناهج التأصيل والتغيير التي تتبناها- الجهادية، السلفية، السياسية.

وخلصت الدراسة إلى أن التأمل في حال العمل الإسلامي في العقود الثلاثة الماضية قد كشف بجلاء عن حجم الضرر الفادح الذي تسببت فيه ممارسات العنف أيًّا كانت الجماعة التي تمارسه على الأمة الإسلامية بشكل عام، والحركات الإسلامية بشكل خاص، وتكمن المشكلة الرئيسة في أن الجماعة أو الحركة التي تُدرك -مُتأخرةً- فداحةَ منهجها فتتأى عنه، وتتراجع عن ممارساتها الأولى؛ قد لا تؤثر بمسلكها الجديد على الأجيال التالية من الشباب المتحمس للإسلام، بل تظل المرحلة الأولى من مسيرة جماعات العنف -بالنسبة لهؤلاء الشباب- هي موطن الاقتداء والفخر والعزة والبطولة.

ومن ثم فإن هذا يعني أن الزخَم الفكري والمعنوي الذي يَمُدّ نهج العنف بأنفاس الحياة والاستمرار لا يزال باقيًا، ولا يزال الواقعُ الإسلامي مهيئًا لظهور جماعات أخرى قد تتبنى العنف منهجًا ومسلكًا في المستقبل، ما لم يتصدَّ العلماء والمفكرون وقادة العمل الإسلامي لهذه الظاهرة التي تنسف كثيرًا من الإنجازات الحقيقية للعاملين للإسلام.

وعليه فإن الأمر ليس مجردَ كلماتٍ تُقال عن نبذ العنف أو حرمة الدماء، بل يجب السعيُ لتكوين ثقافةٍ راسخةٍ عميقةِ الأركان والمفاهيم، ترفض العنف رفضًا مبدئيًّا أصليًّا ليس مؤقتًا أو ظرفيًّا، ثم العملُ على نشرها في أوساط الشباب من الدعاة وطلبة العلم لتحصينهم من الانزلاق إلى مساراتٍ لا يَحمد عُقباها كلُّ من يُضمِر خيرًا لهذا الدين ولهذه الأمة.

التداعيات السلبية لممارسات العنف على العمل الإسلامي

أحمد فهمي

باحث في الشئون السياسية

الجهاد، العنف ... مصطلحان ليسا وجهين لعملة واحدة، بل هما ضدان مختلفان، فالأول: ذروة سنام الإسلام، في ممارسته حضورٌ للعزة، وغيابٌ للذلة، كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، أما الثاني فهو مصطلح مائع يدل على ممارسات ينسبها أهلُها إلى الجهاد دون أن يترتب عليها جلبٌ لعزة أو دفعٌ لذلة، بل في أحيانٍ كثيرة يحدث العكس وقد كثر الخلط بين المفهومين في إطار الحروب الغربية على قيم ومفاهيم الأمة وأبنيتها العقدية والثقافية.

تعريف العنف:

العنف مصطلح غير منضبط من الناحية العلمية، وهو من نوعِ المصطلحات التي يتعامل معها المختصون وفق مسلماتهم وقناعاتهم الفكرية المسبقة، فمن يتحامل على الإسلام أو على الإسلاميين والعمل الإسلامي؛ يوسّع مجال العنف فيجعله شاملاً لكل محاولةِ تغييرٍ للمنكر، أو مقاومةٍ لمحتل، ومن يصنّف أعمال التفجيرات بكافة صورها ضمن عمل الجهاد، لا يعترف أصلاً بمصطلح اسمه العنف، ويذكر الدكتور ناصر العمر أن الخلل الواقع في التفريق بين المصطلحين مردّه إلى الاضطراب في تنزيل الجهاد على مواقعه الحقيقية، «فهم يقولون جهاد، ولكنه ليس بجهاد، فقد يكون عنفًا باسم الجهاد، وقد يكون جهادًا لكن ليس هذا وقته، وقد تتوفر الشروط، ولكن توجد موانع. والخضوع في هذه المسائل للشرع وللعلماء المعتبرين وليس إلى المجاهيل».[1]

في هذا البحث سوف يُعرف العنف اصطلاحًا بأنه «ما نُسِب إلى الجهاد وليس منه»،[2] مع التركيز على العمليات التي نُفِّذَت في هذا السياق داخل الدول الإسلامية أو ضد الأهداف المدنية في الدول الغربية، وفق إطار زمني يبدأ من أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م وإلى وقتنا الحالي.

أما مصطلح «العمل الإسلامي» فهو ضمن قائمة المصطلحات التعريفية التي ظهرت بطريقة تلقائية مع نشأة وتطور جهود الدعوة للإسلام، والسعي لإعادته عقيدةً وشريعةً في واقع المسلمين على إثر سقوط الخلافة العثمانية، وهو ليس مصطلحًا ذا دلالة توقيفية نصيّة يتفرع عنه مذاهب وأفكار واتجاهات، وغالب استخدامه في توصيف: كافة الأنشطة التي تمارسها التيارات والجماعات والحركات والشخصيات الإسلامية التي تتبنى

(١) من كلام الشيخ الدكتور ناصر العمر -المشرف العام على موقع المسلم- في لقاءات حوارية عقدها الباحث بدءًا من تاريخ ٢٩-١١-١٤٣١هـ.

(٢) بحسب تعريف الشيخ الدكتور ناصر العمر، مرجع سابق.

الهدف السابق، وليس كما يحلو لبعض الناقدين أن يوسع نطاق المصطلح طولاً وعرضًا ليجعل منه مدخلاً سوفسطائيًا لنقد الفكر الإسلامي المعاصر.(١)

هدف الدراسة:

لا شك أن ممارسات العنف قد راكمت أضرارًا فادحة على واقع المسلمين في كثير من المجالات، تركز هذه الدراسة بالأساس على تقديم رؤية سياسية مستندة على تأصيل شرعي للأضرار التي لحقت بالعمل الإسلامي جراء هذه الممارسات، وتستهدف المساهمة في تكوين ثقافة راسخة - لدى الدعاة وطلبة العلم وكل من يعمل للإسلام - من شأنها أن تجعل الرافضين لنهج العنف على بينة من أمرهم، وأن تحجز المنغمسين فيه عن الإغراق في ممارسات استبان ضررها وغاب نفعها.

مسارات الآثار السلبية:

يمكن ملاحظة التداعيات السلبية على العمل الإسلامي الناجمة عن ممارسة بعض الحركات الإسلامية للعنف من خلال ثلاثة مسارات تشمل في طياتها الاتجاهات الرئيسة للتيارات الإسلامية بحسب مناهج التأصيل والتغيير التي تتبناها: الجهادية، السلفية، السياسية.

المسار الأول: الجماعات الجهادية:

تنقسم الجماعات الجهادية بحسب موقفها -العملي- من العنف - كما تم تعريفه- إلى قسمين: **الأول**: يضم الجماعات التي تمارس أعمالاً جهادية ضد قوات احتلال أجنبية تحتل الأرض التي تنتمي إليها تلك الجماعات، مثل: الشيشان، أفغانستان، فلسطين.

الثاني: يضم الجماعات التي تمارس أعمال العنف كما ينطبق عليها التعريف المذكور، سواء ترافق ذلك مع أعمال جهادية ضد قوات احتلال أجنبية أم لا، ومثالها تنظيم القاعدة والجماعات المنضمة إليه أو السائرة في فلكه.

نتج عن ممارسات العنف التي نفّذتها حركات القسم الثاني آثار سلبية وأضرار لحقت بكافة الحركات الجهادية، سواء في ذلك من مارست العنف، ومن لم تمارسه.

بالنسبة للحركات في القسم الأول- التي تقاوم الاحتلال الأجنبي لبلادها- يمكن تلخيص أبرز الأضرار التي لحقتها -وفق الإطار الزمني المحدد- **فيما يلي**:

بعد هجمات سبتمبر ٢٠٠١م تحولت أفغانستان لتصبح بؤرة الصراع مع بدء الحرب الأمريكية على ما يسمى بـ"الإرهاب"، ونتج عن ذلك تقلص كبير في اعتناء الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي بالانتفاضة الفلسطينية التي كانت في عنفوانها، ومع تراجع الاهتمام؛ فقدت عمليات المقاومة زخم التأييد، وتراجعت إلى حدها الأدنى لتنتهي الانتفاضة دون تحقيق كثير من أهدافها

١- بعد هجمات سبتمبر ٢٠٠١م تحولت أفغانستان لتصبح بؤرة الصراع مع بدء الحرب الأمريكية على «الإرهاب»، ونتج عن ذلك تقلص كبير في اعتناء الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي بالانتفاضة الفلسطينية التي كانت في عنفوانها، ومع تراجع الاهتمام؛ فقدت عمليات المقاومة زخم التأييد، وتراجعت إلى حدها الأدنى لتنتهي الانتفاضة دون تحقيق كثير من أهدافها.

٢- أدت العمليات المتتابعة للحركات المتبنية للعنف إلى تعميم تهمة «الإرهاب» على كل حركات المقاومة الإسلامية التي أُلحِقت بقوائم الإرهاب في أغلب الدول الغربية.

٣- فقدت كثير من حركات المقاومة مصادر

(١) انظر كمثال على ذلك مقالة الأكاديمي عبد الله البريدي: معضلة الماهية والهوية في العمل الإسلامي، الجزيرة نت.

تمويلها؛ بسبب الحصار المالي العالمي على جمع ونقل الأموال، وتعرضت أغلب الجمعيات الخيرية الداعمة لتلك الحركات إلى الإغلاق أو التضييق، كما تعرض المسئولون عنها إلى الملاحقة والاعتقال، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

٤- فقد الرأي العام الإسلامي اهتمامه بتلك الحركات تحت وطأة التشويش الإعلامي، ومع تداخل الرايات واضطراب الأهداف، أصبح المسلمون في كثير من الدول يعيشون فيما يشبه العزلة القسرية، كما هو الحال في: كشمير، الفلبين، الشيشان.

أما الحركات في القسم الثاني -الحركات التي تتبنى العنف- لم تسلم هي الأخرى من التداعيات السلبية؛ نتيجة ممارساتها، فتأذت من منهجها وتضررت من مسلكها، وسعيًا لتقديم رؤية متوازنة لهذه التداعيات نستخدم في هذه الفقرة مقاربة تاريخية يتم فيها المقارنة بين الجماعات الإسلامية التي تبنت العنف، وممارسته بصورة مكثفة في حقبة الثمانينيات وحتى منتصف التسعينيات من القرن الماضي، وبين الجماعات الحالية، وذلك بهدف تكوين صورة عامة عن «دورة العنف»: كيف تبدأ ومتى وكيف تنتهي؟ من خلال تلمس الأنماط المتكررة المتضمنة في مسارات تلك الحركات مع تغير الزمان والمكان، وبالأخص ما يتعلق بمآلاتها سواء على المستوى الجماعي أم على مستوى القيادات والرموز.

التجربة الأولى للعنف.. بداية ونهاية:

ظهرت أطروحات العنف «المتدثرة» بالجهاد في صورتها المعاصرة من خلال حركات إسلامية نشأت منذ حقبة السبعينيات وتبنت ممارسة العنف، ويمكن تلخيص الأسباب والكيفيات التي رافقت نشأة هذه الحركات في أربعة عناصر:

١- تبني العنف كاختيار منهجي أصلي؛ نتيجة رفض الواقع العلماني القائم في أغلب الدول الإسلامية، وهو حال مجموعات الجهاد التي تشكلت في عدة دول أبرزها مصر.

٢- ردة فعل تجاه سياسة النظام، خاصة فيما يتعلق بقمع الحريات وحظر العمل الإسلامي، والتحالفات الخارجية، ومثالها: الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين في سوريا؛ حيث نشأت الحركة من رحم جماعة الإخوان المسلمين نهاية السبعينيات.[١]

٣- انتشار مظاهر الفسق والفجور في المجتمع، مما دعا إلى ظهور مجموعات تتبنى تغيير المنكر بالقوة، مثل حرق محلات بيع الخمور في مصر.

٤- تأسيس جناح عسكري للحركة الأم لأهداف تتعلق بالتغيير المستقبلي، مع بقاء الحركة ممارسة لنشاطها الدعوي الرئيس، ومثاله: الجماعة الإسلامية في مصر.

أبرز الحركات التي نفّذت عمليات حقيقية منذ حقبة السبعينيات هي ما اصطُلِح على تسميتها «جماعة الفنية العسكرية» عام ١٩٧٤م التي يصفها مختار نوح القيادي السابق في جماعة الإخوان المسلمين بأنها: أول محاولة انقلاب إسلامي عسكري في القرن العشرين[٢]، ثم ظهرت تنظيمات مختلفة تتبنى فكر الجهاد، ثم تأسست الجماعة الإسلامية نهاية السبعينيات، ومعها تأسس جناحها العسكري، كما ظهرت مجموعة جهيمان العتيبي التي اعتصمت في الحرم المكي، والطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين في سوريا في نفس الفترة تقريبًا، وتلاحقت بعد ذلك تنظيمات جهادية مختلفة في غالبية البلاد الإسلامية، كان آخرها الجيش الإسلامي للإنقاذ الذي تأسس في الجزائر كردة فعل على إقصاء الجبهة الإسلامية

(١) تنفي الجماعة انتماء الطلائع إليها، وقال المراقب العام الحالي الأستاذ محمد رياض الشقفة في حوار مع فضائية بي بي سي: إنهم لا علاقة لهم بالإخوان، موقع سوريون نت ٢٦-١٠-٢٠١٠م.

(٢) انظر: مختار نوح، موسوعة الحركات الإسلامية والسياسية، ثلاثون عامًا من الصراع في مصر، ج١ قضية الفنية العسكرية، موقع مختار نوح على شبكة الإنترنت.

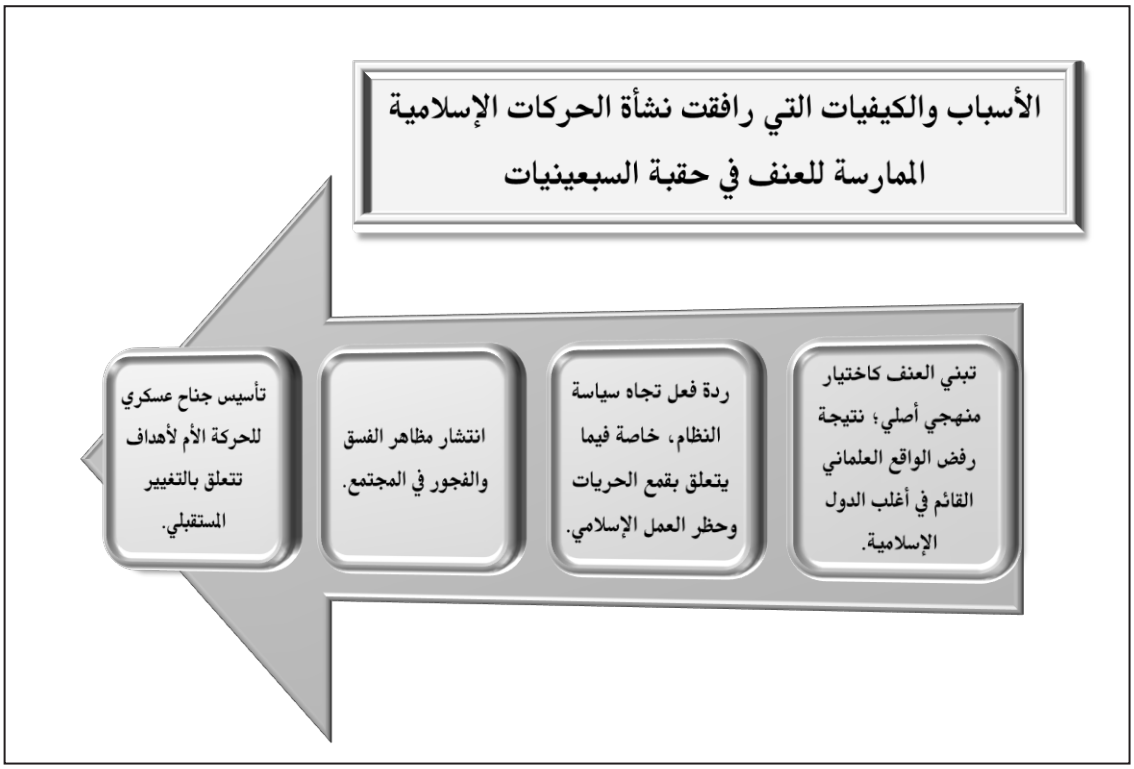

للإنقـــاذ بعد تحقيقها فوزًا كاســـحًا في الانتخابات، وكذلك ظهرت الجماعة السلفية للدعوة والقتال.

وفّـــر الجهاد فـــي أفغانســـتان- وكذا البوســـنة والشيشـــان- الذي طال أمده منذ السبعينيات وحتى مطلع التســـعينيات مجالات رحبـــة لتلقي التدريبات العســـكرية ليتكون جيل كامل من الشباب الإسلامي أطلقت عليهم وســـائل الإعلام اسم «الأفغان العرب»، وقد انخرط عدد كبيـــر منهم بعد عودته في مختلف الحركات الجهادية التي تبنت ممارســـة العنف داخل الدول الإسلامية.

بلغـــت أغلب هذه الجماعات مرحلـــة «الذروة» من كثافـــة العمليـــات المنفذة فـــي الفترة مـــن منتصف الثمانينيات وحتى نهاية التسعينيات، وأبرزها: جماعة الجهـــاد، الجماعة الإســـلامية -مصـــر- ، الجيش الإســـلامي للإنقاذ، الجماعة السلفية للدعوة والقتال - الجزائر-.

انقضـــت مرحلـــة «العنفوان» في ممارســـات تلك الحركات في مدة تراوحت من سبع إلى عشر سنوات، دخلت بعدها فـــي مرحلة من التراجع المعنوي والمادي والعســـكري، وتـــوزع الأتباع بين خيـــاري: الاعتقال، المطـــاردة، ولم يلبث كثير من قـــادة تلك الحركات أن دخلوا في مرحلـــة تفاوضية مع الســـلطات، أعقبها إعلان مراجعات فكرية وشـــرعية للمفاهيم السابقة أســـفرت عن نبذ العنف، وكان التحول كاملاً بالنسبة للجماعة الإســـلامية المصرية، والجيش الإســـلامي الجزائـــري، بينمـــا كان جزئيًا لـــدى جماعة الجهاد والجماعة السلفية للدعوة والقتال.

نظرة تحليلية:

يفيد الاطلاع على التجربة التاريخية لهذه الحركات في اســـتنباط عدة أنمـــاط تحليلية قابلـــة للتكرار، والتحليل هنا يتناول مسارات الجماعات التي مارست العنف ثم انتهـــى وجودها كجماعـــة، أو توقفت عن نشاطها قبل العام ٢٠٠٠م:

١- موقف الجماهير:

لم تحظ ممارسات العنف في أي بلد إسلامي بتأييد جماهيـــري لافت، وانحصر أغلب الدعم والنصرة في مستويات محلية ضيقة انطلاقًا من الانتماء العشائري أو القبلـــي- حالـــة الجماعة الإســـلامية في صعيد مصر-، وعجزت كافـــة الحركات الجهادية من خلال تبنيها للعنف أن تصل إلى مرحلة متقدمة من تحريك الجماهير في اتجاه «انتفاضة» أو «ثورة شعبية».

وكان الأمـــر الذي عزّز الإعـــراض الجماهيري عن هذه الجماعات هو سقوط أعداد متزايدة من القتلى والمصابين جـــراء العمليات المنفّـــذة، ولم يصمد أي تســـويغ قدمته هذه الجماعات أمـــام حقيقة أن دماء المســـلمين محرمة، ولا يمكن بحـــال القبول بأن نصر الإســـلام يقتضي أن يقتل المسلم أخاه المسلم أو يهدر دمه.

٢- موقف العلمانيين:

استغل العلمانيون ممارسات العنف بصورة واضحة خلال فترة المواجهات المشـــار إليها، وتنوع الاستغلال بين الترويج لقوانين مقيدة للحريات، أو محاولة تقليص مساحة التدين المتاحة، أو استغلال ممارسات العنف في التضييق على التيارات الأخرى التي لا تتبنى ذلك النهج، ومن الملاحظ أن هؤلاء العلمانيين كانوا من أكثر الناس اعتراضًا وتشكيكًا في المبادرات التي بدأ قادة الجماعة الإســـلامية في مصر بطرحها منذ منتصف التسعينيات.

٣- اضطراب في تكوين منظومة الأهداف:

بعد سنوات من المواجهة والصراع بين تلك الحركات والسلطات المحلية، كان واضحًا حدوث اضطراب كامل في منظومة الأهداف؛ بحيث بات من المستحيل تكوين رؤية دقيقة عن الغاية التي تســـعى إليها الحركات من خلال ممارســـتها للعنف، ويمكن ملاحظة تتابع هذه المراحل فيما يتعلق بمنظومـــة الأهداف: أولاً: ذوبان الأهـــداف الأولى. ثانيًا: تكوّن أهداف مرحلية جديدة متعلقة بالصـــراع وليس بالقضية الأساســـية. ثالثًا: مسارات الثأر والانتقام.

٤- الإنجاز:

لم تحقق أيّ من الحـــركات التي تبنت نهج العنف أهدافها التي أعلنتها كمُسَوِّغ لتبني هذا النهج، ولذلك تضمنت المراجعات التخلي عن الســـعي لتحقيق هذه الأهداف بذلك النهج، وهذا يعني أن مستوى الإنجاز يساوي صفرًا، وأن المسوغات التي طُرِحت في المرحلة الأولى كانـــت مُجانبة للصواب، يشـــمل ذلك أهدافا مثل: إقامة حكم إسلامي في الدول العلمانية، أو مثل: تغيير المنكرات وإزالة مظاهر الفســـاد في المجتمعات الإسلامية، ولا يخفى أن درجة الإخفاق تزداد عندما تؤدي ممارســـات العنف إلى ترسُّخ أو انتشار أو تمكُّن ما اســـتهدفت تلك الجماعات إزالته أو تغييره، بحيث أنه يصبح بعد العنف في حالة أقوى مما كان عليه بعد ممارسات العنف.

٥- المراجعات:

أغلـــب الحركات وصلت إلـــى قناعاتها الجديدة- المراجعات- بعد بلوغهـــا مرحلة متقدمة من الصراع مع الســـلطات وبعد استنفاد القوى والمصادر في تلك المواجهات وصولاً إلى وضع تفاوضي صعب، سواء تم ذلك من وراء الأســـوار داخل المعتقلات، أو في حالة المطاردة.

وبعبارة أخرى: لم يكن ذلك يمثل الوضع التفاوضي الأمثـــل لتلك الحـــركات، وعادة ما تكون هذه ســـمة القناعات التي تتكون نتيجة الوصول إلى خيار الصفر، فـــي حين أن التوقع المبكر للوصـــول إلى هذه المرحلة والإدراك الاستباقي بأن نهج العنف ذو عاقبة وخيمة على كافة الأطراف، كان يمكن أن يحقق لهذه الحركات مزايا تفاوضية أفضل من تلك التي تحققت.

ومن أبرز الأســـماء التي قدمت مراجعاتها بعد أن

عُرِفت في مرحلة سابقة بالحدة والتشدد في اتباع نهج العنف: كرم زهدي، د. ناجح إبراهيم، من قيادات الجماعة الإسلامية في مصر- مدني مرزاق: قائد الجيش الإسلامي للإنقاذ، حسن حطاب: قائد الجماعة السلفية للدعوة والقتال، الجزائر، سيد إمام -دكتور فضل- من أبرز رموز جماعة الجهاد المصرية.

التجربة الثانية للعنف.. بداية ...:

الغرض من المقارنة بين التجربتين هو إثبات تحقق نفس التداعيات السلبية التي تعرضت لها الحركات المتبنية للعنف سابقًا مع مثيلاتها حاليًا، مع التنويه إلى تزايد الاحتمال بأن تتعرض الحركات الحالية لنفس المآلات الثلاثة التي بلغتها حركات التجربة الأولى: الاعتقال، المطاردة، المراجعات.

وجدير بالذكر أن تجارب الحركات الإسلامية تتضمن عددًا كبيرًا من الأنماط القابلة للتكرار؛ بسبب التشابه في النشأة والمنهج والغاية، وهذه عوامل ترفع من احتمال بلوغ الحركات المتبنية للعنف حاليًا نفس ما بلغته الحركات الأولى، مما يعني أن المبادرة بالتخلي عن هذا النهج تحقق المصلحة للجميع.

١- موقف الجماهير:

لم تحقق ممارسات الحركات الحالية التي تتبنى العنف تأييدًا يُعتَدّ به في أوساط الجماهير، وعلى رغم أن هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م حظيت بتأييد لدى كثير من شرائح الجماهير المسلمة؛ نتيجة الشعور الطاغي بالظلم الأمريكي الذي يتعرض له العالم الإسلامي، إلا أن هذا التأييد خفت تدريجيًا مع ظهور عدد من التفاعلات بالغة الضرر أفرزتها تلك الهجمات التي تحولت مع الوقت إلى نقطة فاصلة يُؤرَّخ بها - ما قبل وما بعد سبتمبر- في مسيرة العمل الإسلامي، بل وفي الأوضاع السياسية والاقتصادية للعالم الإسلامي بأسره، وفي أغلب المجالات لا يزال المسلمون يتبينون أن أحوالهم في مرحلة «ما قبل» كانت أفضل بكثير منها في مرحلة «ما بعد».

أما بالنسبة لعمليات العنف في السنوات التالية؛ فلم يُرصد لها تأييد ملحوظ، عدا فئات من الشباب المتحمس، هذا فيما يتعلق بالساحة الغربية، أما على الساحة الإسلامية؛ فإن التأييد يصل إلى مستوياته الدنيا حتى يكاد يتلاشى على كافة المستويات الجماهيرية التي اتفقت على نبذ العنف بالنظر إلى نتائجه الدامية، ويؤكد الدكتور ناصر العمر أنه «لا يُعرف من كبار علماء الأمة المعتبرين من أيَّدهم في أي بلد من البلاد»[1]، ولأن الناس تبعٌ لعلمائهم؛ فإنه يمكن توقع مستوى الرفض لهذه الممارسات على المستوى الجماهيري.

٢- موقف العلمانيين:

تطور الاستغلال العلماني لممارسات العنف في صورتها الحالية ليتخذ صورة تراتبية ذات نمط واحد متكرر، فالأجندة العلمانية تتضمن بنودًا كثيرة على جدول الأعمال، وهم ينتظرون أي عملية تفجير هنا أو هناك ليستخدمونها كمحفّز للانتقال إلى البند التالي، وفي كثير من الأحيان عندما يفتقدون فعلاً عنيفًا فإنهم يحاولون «تدبيج» نموذج مفتعل لتهديد بقتل أو حتى افتعال هجوم لم يقع، وهكذا تكون النتيجة الحتمية لأعمال العنف: تسريع جدول الأعمال العلماني، وقد اعتاد كثير من المثقفين العلمانيين أن يُعقِّب طرحه المتجرئ على الإسلام بتلقيه رسالة تهديد -مزعومة- بالقتل من جهة مجهولة.

٣- منظومة الأهداف:

في هذا الصدد يجب التفريق بين الطرح النظري للحركات المتبنية للعنف وبين واقعها العملي؛ إذ يكشف الجانب النظري عن استراتيجية تبدو للوهلة الأولى مُصاغة بعناية مع طموحات عالية تُوحي بامتلاك

(١) حوار مع الشيخ العمر، مرجع سابق.

قـــدرات وإمكانات ضخمة[1]، وهـــذا يظهر في كثير مـــن أدبيات تلك الحركات، لكن عند النظر في الواقع العملي يختلف الحال تمامًا؛ حيث يتضح حجم المغالاة فـــي ربط الأهداف بوســـائل لا تُحققها، فقد انغمس هؤلاء فـــي حالة مشـــابهة تمامًا لحـــركات المرحلة السابقة؛ حيث ذابت الأهداف الأولى، وتكونت أهداف أخرى مقترنة بالصراع، ســـواء مع السلطات المحلية أو مع الفصائل المنافسة من اتجاهات أخرى، كما هو الحـــال بين القاعدة وفصائل المقاومة في العراق، وما بين حركة شـــباب المجاهدين والحزب الإسلامي في الصومال، فهذه أنمـــاط من القتال غير المفهوم الذي لا يوجد ما يسوّغه ولا علاقة له ألبتة بالأهداف التي أعلنتهـــا تلك الحركات في بداية نشأتها.

مثـــل ذلك يقال عـــن عمليات خطف السائحين والاحتفاظ بهم من أجل الحصول على فدية، أو إرســـال طرود أو أحذية مفخخة إلـــى الطائرات التـــي تقل على متنهـــا عربًا ومســـلمين وكفارًا، ويؤدي تفجيرها إلى إلحاق الأذى بالجميـــع، ثم القول بـــأن هذه العمليات تأتي في سياق «حرب استنزاف»، وكما جاء في البيان الصادر بهذا الصدد منســـوبًا إلى القاعدة «الطرود التي أُرسِلت إلى الولايات المتحدة أواخر عام ٢٠١٠م لم يكن هدفها القتل، بل التســـبب بأكبر قدر ممكن من الاضطرابات الاقتصادية».[2]

هذه كلها أهداف غير مفهومة، ولا يمكن تخيُّل دولة تنهار أو تنهزم بسبب «أفخاخ» لا تنفجر، بينما قبل تسع سنوات كانوا يُؤملون أن تفجيرَ أربع طائراتٍ كاملة في أهداف كبرى وقتلَ أكثر من ثلاثة آلاف شـــخص في ساعة واحدة، سوف يؤدي إلى تحقيق الانهيار أو حتى الهزيمة، وهـــو ما لم يحدث، فيكف يُقبل -عقلاً- أن تنجح وسائل محدودة التأثير في تحقيق هدف أخفقت دونه وسائل بالغة التأثير؟!!

٤- الإنجاز:

حتى هذه اللحظة؛ فإن «جردة الحســـاب» لا تعطي نتائج إيجابية حسب تقويم الحركات الممارسة للعنف نفسها، فحالها قبل عشر سنوات كان أقوى بكثير مما هي عليه الآن، ولم يتحول ما خسرته إلى رقم يُضاف إلى خانة خســـائر أعدائها، بل إن أعداء الأمة لديهم قدرة هائلة على تجاوز الخسائر بعكس تلك الحركات، وأصبح الحديث يدور عن اختراقات وتوظيف واستغلال لا ينتهي، مع تدهور في الموارد، وتراجع في إمكانـــات التجنيد للأتباع الجـــدد، بالإضافة إلى انخفـــاض ســـقف الطموحات والعمليات المنفذة، ويُفترض أن يكون الإنجاز معيارًا أساســـيًا لتقويم الأداء والنظر في صحة الوسائل والأساليب المتبعة، وفي حالة الحـــركات المتبنية للعنف؛ فإن استخدام هذا المعيار لتقويم أدائها في السنوات العشـــر الماضية يؤدي إلى نتيجة معروفة سلفًا.

حتى هذه اللحظة فإن "جردة الحساب" لا تعطي نتائج إيجابية حسب تقويم الحركات نفسها الممارسة للعنف ، فحالها قبل عشر سنوات كان أقوى بكثير مما هي عليه الآن، ولم يتحول ما خسرته إلى رقم يُضاف إلى خانة خسائر أعدائها، بل إن أعداء الأمة لديهم قدرة هائلة على تجاوز الخسائر بعكس تلك الحركات، وأصبح الحديث يدور عن اختراقات وتوظيف واستغلال لا ينتهي

٥- المراجعات:

يبقـــى بعـــد ذلك فـــي قائمـــة المقارنـــة مرحلة «المراجعات»، وهي كما أشـــرت سابقًا تكون جماعية وفرديـــة، وقد تحققت تراجعات كثيرة على المســـتوى الفردي فـــي الصفوف القيادية للحركات الممارســـة للعنـــف حاليًا، وينقل الدكتور ناصـــر العمر أن الذين أعلنوا عن تراجعهم عن نهج العنف في الســـعودية لم تُمارس عليهم أية ضغوط، وأنهم قالوا ما وصلوا إليه بقناعتهم الشخصية -حســـب علمي- بعد أن أدركوا خطأ هـــذا النهج من العنف فالمقدمات الخاطئة تقود

(١) هـــذه الطموحات غير مقبولة، خاصة ما يتعلـــق منها بإثارة الفوضى داخل الدول الإسلامية واستهداف المخالفين.

(٢) مفكرة الإسلام ٢١-١١-٢٠١٠م.

إلـــى نتائج خاطئة[1]، وهذا تطـــورٌ عن حالة حركات المرحلة الســـابقة الذين نتجت أغلب مراجعاتهم بعد قضاء سنوات طويلة داخل المعتقلات، ولكن المراجعات الحاليـــة -رغم أهميتهـــا- تظل فـــي النهاية فردية، والتغير الحقيقي إنما يحدث مع التحول الجماعي قبل أن تصل هذه الحركات إلى مرحلة «خيار الصفر».

وقد وقع التحول على المستوى الجماعـــي في حالة واحد فقط؛ حيث أعلنت الجماعة الإسلامية المقاتلة الليبية عام ٢٠٠٩م عن نشر مراجعاتها - اســـتغرق إعدادها ســـنوات- فـــي إصـــدار ضخم بعنوان:» دراسات تصحيحية في مفاهيم الجهاد والحسبة والحكم على الناس»، أثبتوا فيه تحولهم الشرعي والفكري[2] ، واللافت أن الجماعة ذكرت في مراجعاتها التي سُميت بـ «الدســـتور» عبارة تلخص حال تلك الحركات، وما تسببه من إشـــكالات: «لقد كتبنا هذا الكتاب، ونحن نعلم أن الأفكار التي كانت لدينا عندما كنا في عنفوان الشباب، والتي أدت بنا إلى سلوك طريق الجهاد، هي أيضًا موجودة لدى الكثير من شباب اليوم»[3] ، وهكذا : دوران في حلقة مفرغة، فمن يحمل تلك الأفكار اليوم ســـوف يظل يمارس العنف حتى يأتي عليه يومٌ يدرك فداحةَ الخطأ الذي يرتكبه، ومن ثم يتقدم بمراجعاته إلى الجيل الجديد الذي لن يقرأها، والعبرة واضحة: هذه الحركات تنتج أشـــخاصا لا يقـــرأون إلا عندما يكتبون مراجعاتهم فقط.

من إشكالات التأخير في تقديم المراجعات الداعية إلى نبذ ممارســـات العنف، أنها عندما تُقدم بصورة جماعيـــة -كما فـــي حالة الجماعة الإســـلامية في مصر- فإنها غالبًا ما تتضمن أفكارًا يُصنِّفها كثيرٌ من الإسلاميين على أنها تنازلات ليس لها داعٍ، ولا علاقة لها بالعنف، الذي هو موضوع المراجعات.

المسار الثاني: الحركات والتيارات السلفية:

التشابه النسبي في منهج التلقي الشرعي والسمت العـــام للتديـــن بـــين التيارات الســـلفية، والتيـــارات التـــي يُصطلـــح علـــى تســـميتها بـ «الســـلفية الجهاديـــة»، أحدث تداخلاً تصنيفيًـــا -عن قصد أو عـــن جهل- بـــين التيارين، ممـــا ألحق آثارًا بالغة الســـوء بالتيارات الســـلفية، وقلَّص من قدرتها على ممارســـة أنشـــطتها المعتادة إلى درجات متدنية في أكثر المجالات، ويمكن القول: إن السلفيين هم أكثر المتضررين جراء ممارسات العنف.

من إشكالات التأخير في تقديم المراجعات الداعية إلى نبذ ممارسات العنف، أنها عندما تُقدم بصورة جماعية -كما في حالة الجماعة الإسلامية في مصر- فإنها غالبًا ما تتضمن أفكارًا يُصنِّفها كثيرٌ من الإسلاميين على أنها تنازلات ليس لها داعٍ، ولا علاقة لها بالعنف، الذي هو موضوع المراجعات

في مطلع العام ٢٠٠٠م كانت التيارات الســـلفية - في مصر والجزائر تحديدًا- بالكاد تستفيق من وطأة تداعيات العنف الذي مارســـته الحـــركات الجهادية الســـابقة طيلة حقبتـــي الثمانينيات والتســـعينيات، لتُفاجئ بركام جديد من الســـلبيات والأزمات تسببت فيها ممارســـات العنف الجديدة التـــي ميزت العقد الأخير، إنها إذن ثلاثون عامًا متتالية من الضيق والعنت والحصـــار والأزمات والمشـــكلات، كان على التيارات الســـلفية أن تواجهها وتتعامل معها مهدرة جزءًا كبيرًا مـــن طاقاتها بعيدًا عن الأهداف الأولى مثل: التطوير الذاتي، والسعي لإصلاح وتغيير المجتمعات المسلمة.

هـــذه أبرز الأضرار والســـلبيات التـــي عانت منها التيارات الســـلفية؛ جراء ممارسات العنف، ويُلاحظ فـــي بعضها حدوثه كأثر مباشـــر علـــى العنف، وفي البعـــض الآخر بتأثيـــر تغير المناخ العام، ســـواء من الناحية الدينية أو السياسية:

(١) حوار مع الشيخ الدكتور ناصر العمر، مرجع سابق

(٢) انظر موقع الإســـلاميون، إســـلام أون لاين تقرير: الإسلاميون ينشر مراجعات الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة، ٥-٩-٢٠٠٩م.

(٣) سي إن إن ١١-١١-٢٠٠٩م، تقرير نك روبرتسون.

١- وُضِعت التيارات السلفية في دائرة الاتهام محليًا ودوليًا بسبب التشابه النسبي بينها وبين «السلفية الجهادية»، ولأن الأولى هي الأكثر انتشارًا وتواجدًا على الساحة، بات يُنظر إليها على أنها الأصل للفرع الجهادي، وأن افتراق الفرع عن أصله ليس انشقاقًا بل اتفاقًا وتنسيقًا للأدوار، وفي أحسن الأحوال صُنِّفت التيارات السلفية بوصفها كيانات هلامية غير قادرة على ضبط أتباعها أو تحصينهم، وأن دورها الأساس هو توفير الأتباع وتوليد الأجيال للحركات التي تتبنى العنف، وتبعًا لذلك توزعت استراتيجيات التعامل مع تلك التيارات على مسارين: أولهما: الافتراض بأن بعض التيارات السلفية له علاقات شراكة مع الحركات الجهادية، وبالتالي يجب تصنيفهما في خانة واحدة. والمسار الثاني: الافتراض بأن كل سلفي هو مشروع «جهادي» محتمل، ومن ثَم يصبح الخيار الأمثل هو: محاصرة الفكر السلفي بالتزامن مع تقليص الوجود السلفي، أي محاربة الفكرة ومن يحملها وما يبلغها.

٢- قبل عقدين أو ثلاثة كان السلفيون يتمتعون بقدرة عالية على الوصول إلى الجماهير بكافة السبل، نعم لم يكن السلفيون يتميزون بإمكاناتهم الجماهيرية بصورة عامة، ولكن بقيت السبل مفتوحة والقيود مرفوعة أمام من يتقن العمل مع الجماهير، ومع تتابع موجتي العنف المشار إليهما تقلصت المساحات المتاحة أمام السلفيين للعمل الجماهيري إلى حدودها الدنيا، وبلغ التقليص ساحة المساجد، حيث الموئل السلفي للدعوة؛ فوُضِعت القيود على الممارسات الدعوية المعتادة من خطابة ودروس ومحاضرات، وأصبحت الساحة الوحيدة المتاحة للوصول إلى شرائح واسعة من الجماهير هي: الفضائيات، وهي رغم رحابتها إلا أنها تتيح المجال لعدد محدود من الدعاة مقارنة بآلاف من الخطباء وطلبة العلم الذين كانوا يملئون المساجد، كما أن الفضائيات لا تتيح التواصل الجماهيري عن قرب، فضلاً عن تعرض الدعوة عن طريقها للحجب كما حدث في الآونة الأخيرة.

٣- اضطرار كثير من رموز التيارات السلفية إلى إعادة صياغة الخطاب السلفي، بما يتضمن تنازلات -منهجية أحيانًا- من أجل تجسير الهوة، وتقريب الطرح السلفي الذي بات أكثر غربة داخل المجتمعات الإسلامية، على الرغم من انتشار الدعاة السلفيين في الفضائيات فهم لا يمتلكون القدرة على طرح كل ما يتضمنه، المنهج السلفي ويدعو إليه، وقد أسفر تكرار محاولات «إعادة الصياغة» المتكررة عن تشوه في المواقف والمفاهيم مع الوقوع في تناقضات صارخة لا تتناسب مع مسلمات المنهج السلفي، فبات تناول المذاهب المنحرفة والمنكرات والعصاة وحتى الكافرين، انتقائيًا إلى حد كبير، ويزداد التناقض عندما تقتضي معادلاتُ التوازن- أو البقاء- توجيهَ انتقادات لاذعة تجاه طرف أو جهة تستحق النصح اللطيف، في حين تسلم جهة أخرى لا يخفى عداؤها من مجرد النقد الخفيف.

٤- هذا اللجوء المتكرر إلى «إعادة صياغة الخطاب» أفرز بدوره مناخًا خلافيًا عزز من الانشقاقات والتباينات في الأوساط السلفية مع تزايد الاجتهادات المسيسة الانتقائية التي لا تنطلق من تأصيل شرعي حقيقي، بمعنى أن كل اجتهاد على هذه الشاكلة عندما يتم طرحه على الملأ تنشأ على الفور ردات فعل مؤيدة ومعارضة له، وهكذا مع كل اجتهاد يتميز شقّ جديد في الصف السلفي حتى بات بعض المنتمين للتيارات السلفية يقسمون الرموز إلى: يمين ويسار.

٥- يتوَافَق كثيرٌ من مثقفي العلمانيين مع منتقدي الإسلام والمسلمين في الغرب على تقمص حالة «التربص» المستمر بالخطاب السلفي عبر وسائل الإعلام المختلفة، ويأتي موقع «ميمري تي في» في مقدمة المتربصين في الغرب، وهذا الاسم اختصار لعبارة «معهد بحوث إعلام الشرق الأوسط» ومؤسسه عام ١٩٩٨م هو العقيد السابق في مخابرات الجيش الصهيوني «إيجال كارمون»، والمعهد مَعْنِيّ برصد وتحليل المواد المسموعة والمشاهدة، والمقروءة في

إعلام الشرق الأوسط، ويتابع أيضًا محتوى المناهج التعليمية والاتجاهات الدينية، ويقع مركزه الرئيس في واشنطن، وله أفرع في بغداد، وطوكيو والقدس، ويعمل فيه أكثر من ٧٠ موظفًا حول العالم، تُترجَم تقاريرُه إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية، ويذكر الموقع أنه يعمل على نقل صورة واقعية للجهاد الإسلامي في المنطقة العربية وباكستان وأفغانستان، ويقدم بابًا مختصًا في التنبيه على الخطط الإرهابية، ويتضمن تغطية لأهم ١٠٠ موقع إسلامي، وأهم ٧٥ قناة إسلامية وعربية من بينها: الجزيرة، المجد، اقرأ، الرسالة، الناس، الرحمة، المستقلة[١]، ونشر الموقع عام ٢٠٠٩م وحده ١٥ ألف تقرير مترجم، بالإضافة إلى ترجمة ١٦٠٠ مقطع تلفزيوني منقول من فضائيات الدول الإسلامية.[٢]

نتيجة حالة «التربص» وُضِعَ الدعاةُ والعلماءُ المنتمون إلى التيارات السلفية تحت رقابة مستمرة، فكل تصريح أو فتوى أو موقف يصدر عن أحدهم قابلٌ للرصد و«إعادة التصنيع» والترويج في سياقات جديدة، فقد يجد داعيةٌ ما نفسَه فجأة ودون سابق إنذار موضع اهتمام عشراتٍ من وسائل الإعلام العربية أو الغربية بسبب كلماتٍ ألقى بها.

وحالة «التربص» هذه لا ينفع معها حَذَر ولا فطنة؛ إذ منتهى ما يمكن الوصول إليه في ذلك أن يمتنع الداعية عن الكلام[٣]، وحتى لو اقتصر على نصوص القرآن والسنة دون غيرها، فهذا لا يكفي؛ إذ بحسب ثقافة «المتربصين» فإن أكثر من نصف القرآن والسنة يدعوان إلى معاداة السامية، ورفض التعايش بين الأديان، ومعاداة الآخر، وقتال الكافرين، وحبس المرأة في بيتها.. وقتل الفأر، والأخير جاء النص عليه في حديث للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد أدى ذكر هذا الحديث في برنامج يشارك فيه الداعية محمد المنجد إلى ضجة إعلامية كبرى؛ لأنه اعتدى على حق « ميكي ماوس» في الوجود؛ حيث تناقلت الخبر عن موقع ميمري كُبرياتُ وسائل الإعلام مثل: سكاي نيوز، فوكس نيوز، إيه بي سي، إن بي سي.[٤]

الطريف أن موقع يهودي آخر مهتم بمتابعة الإعلام الفلسطيني (pmw) نقل عن قناة الأقصى التابعة لحماس استخدامها ميكي ماوس بطريقة أخرى في أحد برامج الأطفال؛ حيث ذكر الموقع أن حماس توظّفه لتدريب الأطفال على الإرهاب، وانتقى الموقع مقطعًا من البرنامج يظهر فيه شخص يرتدي دمية «ميكي ماوس»، ويردد كلمات متضمنة رسائل توعية للأطفال حول الصراع مع اليهود.[٥]

٦- تأثر الوجود السلفي في أوروبا كثيرًا بعد سبتمبر ٢٠٠١م، ثم تفجيرات مدريد عام ٢٠٠٤م ثم تفجيرات لندن عام ٢٠٠٥م، وبعد أن كانت الساحة الأوروبية تتميز بحرية الحركة والنشاط، تغيرت الأوضاع مائة وثمانين درجة، ليتحول السلفيون إلى فئة منبوذة مُحاصَرة تعاني التضييق والرقابة المستمرة، وقد وَصفَ تقريرُ راند - عام ٢٠٠٧م حول الإسلام المعتدل- التيارَ السلفي بأنه «تيارُ الاعتزاز بالإسلام بأكمله، ومحاولةِ تطبيق كافة تعاليمه»، ويصنّفه التقرير بأنه أخطر التيارات التي تواجه أوروبا، ويجب تحجيمه ومقاومته، والعمل على تقليص وجوده العملي في الحياة الفكرية للمسلمين في أوروبا.[٦]

(١) ميمري تي في.. المسلمون في عيون وقحة، شبكة الألوكة ٢٥-٨-٢٠١٠م.

(٢) عبد العزيز كحيل، مقال: مركز ميمري الصهيوني، شبكة الألوكة ٧-٧-٢٠١٠م.

(٣) لا يمنع ذلك من أهمية التزام الدعاة بتطوير ومراجعة خطابهم الديني بما يحقق أمرين: عدم التخلي عن الثوابت وتجنب تطويع مفردات الخطاب إلى درجة التنازل، والأمر الثاني، هو تقليص منافذ الانتقاد ومواطن التربص أمام تلك الفئة المستهدفة للإسلام.

(٤) انظر مقطع الفيديو على موقع يوتيوب بتاريخ ٣-١٠-٢٠٠٨م:
http://www.youtube.com/watch?v=vfporWh3Y9s&feature=related

(٥) يوتيوب ٨-٥-٢٠٠٧م وقد شاهد المقطع نحو ٧٠٠ ألف شخص حتى الآن والناشر هو الموقع اليهودي: مراقبة الإعلام الفلسطيني
http://www.youtube.com/watch?v=gi-c6lbFGC4

(٦) د باسم خفاجي، استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام، قراءة في تقرير راند ٢٠٠٧، المركز العربي للدراسات الإنسانية ٢٠٠٧م.

المثال الأكثر تعبيرًا عن «حالة العداء للإسلام» في أوروبا، هو إصدار قانون في فرنسا يجرّم ارتداء النقاب في الأماكن العامة، وقد صدر القانون قبل أشهر بإصرار عجيب وإجماع كبير من الحكومة والبرلمان مؤيدَيْن بالرئيس نيكولا ساركوزي، ويمكن ملاحظة مستوى العداء بمعرفة أن وزارة الداخلية الفرنسية قدرت عدد المنتقبات في فرنسا- مواطنات ومقيمات- بحوالي ٣٦٧ امرأة، [١] وبغض النظر عن صحة الإحصاء فيبقى أنه صادر من جهة رسمية، وتم إصدار القانون بناء على تقديرها للموقف، القضية إذن ليست في بضعة مئات من المنتقبات، ولكنها الرغبة في «تحجيم» الوجود السلفي، وعرقلة انتشاره داخليًّا، أو تحول فرنسا إلى جهة استقبال للسلفيين الراحلين من دول عربية أو أوروبية أخرى، باختصار: منع النقاب هو الوسيلة الأنجع لوقف الزحف السلفي من وجهة نظر أوروبا.

يتخذ شلغومي موقفًا «متطرفًا» من المظاهر السلفية مثل اللحية والنقاب، ويقول: «إنه منظر بشع ومخيف أن ترى سيدة مسلمة بهذا الكمّ من السواد، نحن اليوم نتحاور ونتناقش، وأتلقى التهديدات لأنني ضد النقاب.. حرام أن نحصر الإسلام الحنيف خلال ١٥ قرنًا من الزمان في قطعة سوداء أو «خرقة سوداء» من القماش، إن ديننا أعظم من ذلك».

وتقدم الجهات الغربية المعنية نماذج معينة من الفكر والتدين الإسلامي القابل للتواجد في أوروبا، أبرز سمة تميز النماذج الجديدة هي رفضهم التام لمعطيات التدين السلفي ومظاهره، وفي فرنسا تبرز ثلاثة أسماء تحظى بالتقدير والثناء في الإعلام الأوروبي، أولهم: الشيخ دليل أبو بكر رئيس المجلس الفرنسي للدين الإسلامي، وقد عيّنه في هذا المنصب بدون انتخاب الرئيس ساركوزي أثناء توليه وزارة الداخلية، وتلقي الضوءَ على دلالة الاختيار الزيارةُ التي قام بها سفير الكيان الصهيوني للشيخ دليل في مكتبه لتهنئته على المنصب الجديد. [٢]

ثاني الثلاثة، هو عبد الوهاب مدب، الذي يُعرف بأنه باحث متخصص في الفكر الإسلامي، والرجل يحمل كراهية شديدة للتدين السلفي، ويقول صراحة: «علينا تخطي بُعد الإسلام والقرآن دون نكران جذورنا الألفية، لكن ينبغي تأريخ تعاليم الكتاب ووضعها في إطار الحداثة، فبهذا فقط سيتمكن العالم الإسلامي من ردع الأصوات الداعية إلى العنف والجهاد»، ويقول أيضًا: «إن العالم الإسلامي إذا أراد اللحاق بركب الحضارتين اليهودية والمسيحية، عليه تجاوز حرفية السنّة النبوية»، وقد أصدر «مدب» كتابين بعد ١١ سبتمبر أولهما بعنوان «مرض الإسلام» والثاني يحمل عنوان «الخروج من اللعنة»، ومفهوم طبعًا قصده من التسمية. [٣]

ثالث النماذج هو الشيخ حسن شلغومي، إمام مسجد منطقة درانسي شمال باريس، وهو من أصل تونسي وتم اختياره من بين ٢٤٠٠ إمام في فرنسا ليمثلهم في لقاء الرئيس الأمريكي باراك أوباما العام الماضي، ويحظى الرجل بلقاءات مستمرة من نوّاب في الكونجرس ورجال دين مسيحيين ويهود، ويفتخر بأنه زار قطاع غزة بعد الحرب الأخيرة كما زار أيضًا عائلات يهودية في مستعمرة سيدروت [٤] للوقوف على معاناتهم من صواريخ حماس.

ويتخذ شلغومي موقفًا «متطرفًا» من المظاهر السلفية مثل اللحية والنقاب، ويقول: «إنه منظر بشع ومخيف أن ترى سيدة مسلمة بهذا الكمّ من السواد، نحن اليوم نتحاور ونتناقش، وأتلقى التهديدات لأنني ضد النقاب.. حرام أن نحصر الإسلام الحنيف خلال ١٥ قرنًا من الزمان في قطعة سوداء أو «خرقة سوداء»

(١) صحيفة الرياض ٣١-٧-٢٠٠٩م

(٢) عادل قسطل، المد الإسلام في فرنسا بين التحجيم والتنظيم، الجزيرة نت، ٣-١٠-٢٠٠٤م.

(٣) موقع إيه كي آي الإخباري الإيطالي ٥-٨-٢٠١٠م.

(٤) مجلة الأهرام العربي ١٨-٧-٢٠٠٩م.

من القماش، إن ديننا أعظم من ذلك».

ويستخدم شلغومي لغة تحريضية واضحة ضد التيارات السلفية بدمجها مع الحركات التي تتبنى العنف والمشمولة بوصف «الإرهاب» حسب التصنيف الغربي، فيقول: «لا بد أن نظهر للناس أن التطرف يضرب بأطنابه في أوروبا من انتشار للحركة الأصولية المتشددة، التي نزلت تحت الأرض؛ خوفًا من قوانين الإرهاب الجديدة، وتلك التيارات الأصولية موجودة في أغلب البلدان، وأوروبا لا تجد لها مخرجًا من هذا الفكر الأصولي المتطرف، وآخر الشهر سيصدر لي كتاب في العاصمة الفرنسية باريس اسمه: الشيخ حسن شلغومي، من أجل إسلام فرنسي».(١)

الأمر اللافت هنا أن مركز ميمري لمراقبة الإعلام الإسلامي نشر تقريرًا مطولاً بعنوان «مفكرون فرانكفونيون ضد النقاب» نقل فيه مجموعة من أقوال «المفكرين» المسلمين الرافضين للنقاب، والذين يدعون إلى إعادة قراءة الشريعة بلغة عصرية، وفي مقدمتهم: مدب، أبو بكر، شلغومي.(٢)

٧- في سياق محاربة الفكر السلفي، تعرضت المؤسسات التي تتعامل مع «المحتوى السلفي» بالنشر والتبليغ إلى مضايقات عدة، وتراوح أسلوب التعامل معها بين أربعة خيارات: التعديل- التقليص- الغلق- الاستبدال.

فهذه المؤسسات مطالبة بتعديل مناهجها بحذف أغلب محتواها السلفي، وإلا فهي تواجه خياري التقليص أو الغلق، كما يوجد خيار آخر مطروح في عدة دول، وهو استبدال المحتوى السلفي أو المؤسسات السلفية ببدائل أخرى تتبع الطرق الصوفية، الذين يحملون إرثًا كبيرًا من الخلافات والعداء للتيارات السلفية.

المسار الثالث: التيارات الإسلامية السياسية.. آثار عامة:

لم تكن الآثار السلبية المباشرة التي تعرضت لها التيارات السياسية بنفس المستوى الذي تعرضت له السلفية؛ إذ انحصرت غالبًا في إشكالات الحركة والتمويل التي لاقت صعوبات متزايدة بسبب القوانين الجديدة التي صِيغَت من أجل محاربة «الإرهاب» مع بقاء المجال مفتوحًا للاجتهاد حسب كل دولة.

كان يُنظر إلى التواجد الإسلامي في عدة دول أوروبية على أنه يشكّل جهة مساندة ودعم للعمل الإسلامي بالنظر إلى مساحة الحرية التي تتمتع بها تلك الدول مقارنة بالدول الإسلامية، ولكن بعد ١١ سبتمبر؛ تقلصت مساحة العمل الإسلامي في الغرب إلى درجة كبيرة، وبات قادته معنيين بالدرجة الأولى بنفي التهم، وتبييض الصفحة، وإزالة الشبهة

أغلب الأضرار التي تعرضت لها التيارات السياسية جاءت بصورة غير مباشرة وفي سياق الأضرار التي لحقت بكافة الكيانات التي تمارس العمل الإسلامي المعاصر، ومن ثَم يكفي استعراض أهم هذه الآثار العامة دون حاجة إلى تخصيصها لتيار معين.

التداعيات السلبية العامة للعنف على العمل الإسلامي:

١- ضُرِب العمل الخيري في مقتل عن طريق فرض قيود هائلة على تمويل الأعمال الخيرية نتيجة التداخل الذي كان حادثًا في عملية جمع الأموال، والذي سمح للحركات التي تتبنى العنف بالحصول على جزء لا يُستهان به من الأموال الخيرية لتمويل أنشطتها.

٢- تراجعت الأنشطة الدعوية الممولة من دول إسلامية - حكومات أو أفراد- في مواجهة المد التنصيري الجارف الذي لا يعاني من أية ضغوط أو

(١) الشرق الأوسط ٣-٥-٢٠١٠م.

(٢) انظر مقال عبد العزيز كحيل، الألوكة، سابق.

قيود، وخلت الساحة في مناطق إسلامية وغير إسلامية في آسيا وإفريقيا من الوجود الإسلامي المؤثر، بل إن هذا التراجع مَهّد الطريق بصورة غير مسبوقة أمام التغلغل الإيراني الشيعي في كثير من دول إفريقيا دون أن يُواجِه ذلك النشاط العوائقَ التي عرقلت الأنشطة السُنية.

٣- كان يُنظر إلى التواجد الإسلامي في عدة دول أوروبية على أنه يشكّل جهة مساندة ودعم للعمل الإسلامي بالنظر إلى مساحة الحرية التي تتمتع بها تلك الدول مقارنة بالدول الإسلامية، ولكن بعد ١١ سبتمبر؛ تقلصت مساحة العمل الإسلامي في الغرب إلى درجة كبيرة، وبات قادته معنيين بالدرجة الأولى بنفي التهم، وتبييض الصفحة، وإزالة الشبهة، وتعرّض كثير من الدعاة إلى الترحيل والإبعاد والتضييق، وحتى المؤسسات الإسلامية الممولة بواسطة الدول لم تسلم من التضييق، فتم اتهام مناهج التعليم بالتطرف وراجت تهمة «معاداة السامية»، رغم أنها لم تكن متداولة قبل العقد الحالي بهذه الوتيرة؛ نظرًا لحالة الصراع القديمة بين المسلمين واليهود، والتي تمثلت في التاريخ المعاصر بالصراع العربي الإسرائيلي حول فلسطين.

٤- ماذا لو حكم الإسلاميون؟ برزت ظاهرة «فوبيا الإسلام»، وهي مفتعلة في كثير من ملامحها، وهدفها الرئيس هو استخدام التيارات الإسلامية كـ «فزاعة» لتسويغ البقاء طويل الأمد في الحكم أو لمزيد من إجراءات التحجيم، والتقليص للعمل الإسلامي، وهي في ذلك كله تستخدم ممارسات العنف كرافعة أساسية لتحقيق هذه الأهداف.

٥- القضاء على «العنف» أو «الإرهاب» أصبح وسيلة مفضّلة لتَدخُّل الدول الكبرى في شئون الدول الإسلامية، ومع كل عملية منفّذة – سواء نجحت أم أخفقت- يزداد التدخل الغربي والخضوع الإسلامي، وبالتالي نشأ وضع متناقض تمامًا مع أهداف العنف، كما نظّر لها رموز ذلك التيار، فالممارسات التي جاءت في الأصل في سياق رفع الظلم عن عاتق المسلمين، أصبحت سببًا مباشرًا في إيقاع مزيد من الظلم عليهم، والتدخل في شئونهم، وبعض ما كشفته وثائق ويكيليكس المسربة عن السفارات الأمريكية يُعطي مثالاً على تحول ممارسات العنف إلى «مثقاب» لاختراق الدول الإسلامية في دول مثل باكستان.

وبينما أعطت الحركات المتبنية للعنف أولوية كبرى لانتقاد خضوع بعض الدول الإسلامية للنفوذ الأمريكي وعدَّت ذلك مسوغًا لممارساتها؛ فإن الثمرة الأولى لهذه الممارسات/ مزيد من الخضوع.. مزيد من التدخل، هذا يعني أن وقف ممارسات العنف سوف يُغلق بابًا مهمًا من أبواب التدخل والضغط.

٦- صعوبة إنشاء وتطوير مشروعات الأعمال الدعوية، أو الخيرية التراكمية التي تحتاج إلى وقت وجهود ودعم مستمر؛ لكي تؤتي ثمارها، فقد أصبح «الإجهاض المتكرر» هو الأسلوب الذي يتم التعامل به مع مثل هذه الأعمال، خاصة في الدول ذات النهج العلماني التي يحتاج فيها إنشاء مؤسسة تعليمية إسلامية إلى إجراءات معقدة، وكانت هذه الحالة موجودة بدرجات متفاوتة قبل أحداث سبتمبر، ولكنها بعد ذلك أصبحت لازمة، حتى طُرِحت أفكار في أوساط الإسلاميين تدعو قيادات العمل الإسلامي إلى التكيف مع الظرف الراهن بتأسيس أعمال ومشروعات مؤقتة مع تجهيز مستمر لبدائل جديدة- مؤقتة أيضًا- تحل محل السابقة عندما تنتهي مدة صلاحيتها.. وهكذا.

٧- «الاستعداء مجهول العاقبة»، بات مصطلحًا يصف بدقة ممارسات الجماعات المتبنية للعنف، فهي تعيش حالة من الاستعداء لكافة الأطراف والجهات تحت شعار نصرة الإسلام، ورفع راية الدين، دون أن يظهر ارتباط واضح بين هذه الأهداف وبين ما تمارسه من مظاهر الاستعداء.

يتوجه الاستعداء أولاً ناحية الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية- العربية على وجه الخصوص- سواء

كانت أنظمة علمانية أم إســـلامية، والذي يؤكد حالة «جهالة العاقبة» هذه أن ما تستهدفه هذه الجماعات فـــي تلك الدول لا يمكن بحـــال أن يحقّق لها غاياتها الأساسية، فعملياتها مجرد خبط عشواء كيفما اتفق، أو كيفما تيسر من خلال الإمكانات المتاحة، في بعض الأحيان يكون المســـتهدف – على سبيل المثال- أحد مســـئولي الدولة، وعندما لا يتيســـر يُســـتعاض عنه بمن حضـــر، وأدبيات الجماعة الإســـلامية المصرية تذكر الهتـــاف الذي كان يردده أتبـــاع الجماعة أثناء محاكمتهم في قضيـــة اغتيال رفعت المحجوب رئيس مجلس الشـــعب الأسبق، كان الهتاف يقول «إحنا اللي قتلنا المحجوب وموســـى هو المطلوب» يقصدون عبد الحليم موســـى وزير الداخلية الأســـبق، والذي كانت العملية تستهدفه بالأساس، ولكن تصادف مرور موكب المحجوب بدلاً منه.[1]

هذه المعادلة تنقل تلك التيارات، ومعها بقية التيارات الإسلامية التي لا تتبنى العنف منهجًا، من حالة سيئة إلى حالة أسوأ بصورة مطردة، وهكذا يصبح نهج تلك الجماعات قوة دافعة لابتعاد النظام والدولة بأسرها عن الإسلام مع توفر المسوغات، هذا إن كانت الأنظمة التي تحكم علمانية.

أما الأنظمة التي تحكم بالإسلام جزئيًا أو كليًا، فإن اتباع العنف في مواجهتها لا يوجد ما يسوغه، خاصة إذا كانـــت مجالات النصح والدعوة متيســـرة، عندها يصبح اللجوء إلى العنف لســـد الخلل الموجود بمثابة تشويش وتشويه لجهود الإصلاح الحقيقية.

يأتي في هذا السياق تشبث الحركات المتبنية للعنف بمفهوم « قمة الهرم» أو « بؤرة الشر» في تقويم وتحليل أداء الجهات المعادية للإسلام والمسلمين، بمعنى النظر إلى شـــخص بعينه على أنه « منبـــع الأذى»، وإذا تم القضاء عليه؛ فســـوف يتقلص الشر ويتراجع الأذى، فهذا تحليـــل غير دقيق، رغم كونـــه خطوة أولى في اتخاذ تلك الجماعات قرارًا بتصفية إحدى الشخصيات المعادية لها جســـديًا[2]، فالذي يغلـــب على الكيانات والتيارات والكتل والنخب والجماعات التي تشكل في مجموعها قوى المجتمعات فـــي الوقت الحاضر، أنها تعمل في منظومـــات جماعية متوازنة أو متآزرة طالما توفرت دوافعُ بقائها، من هـــذا المنطلق يصبح الزعم بأن اختفاء أحد الرءوس سيؤدي إلى انهيار ذلك التيار أو تلك النخبة، هو قول جزافي ينطوي على قدر كبير من المبالغة.

مـــن ناحية أخرى؛ فإنه ليـــس بالضرورة أن يؤدي تصفية الرمز المتشـــدد إلى ظهور جيل أكثر اعتدالاً، بل في أحيان كثيرة يلعب الاغتيال دورًا عكسيًا بإفرازه جيل يحمل أفكارًا أكثر تشددًا من رمزه الغائب، والمثال العملـــي على ذلك، هو اغتيـــال المفكر العلماني «فرج فـــودة» في مصـــر؛ حيث لم يؤد اغتيالـــه إلى تراجع فعلي في الخطاب العلمانـــي، فضلاً عن أنه لم تلبث النخبة العلمانية أن أفرزت أشباهًا ونظائر له في حدة الخطاب، بينما تحمل الإســـلاميون الرافضون للعنف تداعيـــات عملية الاغتيال، فـــي المقابل تعرض الرمز العلماني المتشدد نصر حامد أبو زيد لمواجهة أخرى لا تتبنى العنف، ولكنها تستخدم الدعاوى القضائية في تحجيم خطـــاب الرجل، وقد نجح ذلك إلى حد كبير، حتى إنه اضُطر إلى الإقامة خارج مصر، دون تصفية أو اغتيال لأحد، ودون أن يتأذى العمل الإسلامي.

وبالتالي فإن اعتماد أسلوب العنف لتصفية الأعداء داخـــل المجتمعات الإســـلامية من شـــأنه أن يُضعف تأثير التيارات الإســـلامية، ويساهم في حصار العمل الإســـلامي في مجـــالات عديدة، بســـبب بقاء تلك الجهـــات كما هي مع توفر مســـوغات إضافية لديها لإظهار مزيد من أشـــكال العداء أو لاستعداء من بيده

(١) هناك تحليلات أخرى كثيرة تحاول أن تضع تفســـيرات مغايرة لعملية الاغتيال.

(٢) يغلـــب أن يكون ذلك في الدول الإســـلامية ذات النهج العلماني، وقد يكون هذا الشخص معاديًا للإسلام حقيقة، أو معاديًا لتلك الجماعات دون أن يكون عدوًا للإســـلام، بل في بعض الأحيان يكون من العاملين للإسلام، ولكنـــه على خلاف منهجي مع أتباع تلك الحـــركات، وهذه الحالة تكررت كثيرًا في العراق.

السلطة لقهر الإسلاميين؛ مما يترتب عليه ضرر بالغ للدعوة والدعاة، وهذا أمر مُشاهَد بوضوح في أغلب حالات الاغتيال التي تمت في مصر، بدءًا من اغتيال الرئيس السابق أنور السادات، ويذكر الدكتور ناجح إبراهيم عضو مجلس شورى الجماعة: «جربنا في مرحلة السادات محاولة الوصول إلى السلطة، وإقامة دولة إسلامية في شبابنا عام ١٩٨١م.. وكانت الدعوة متاحة للجميع وقتها.. فلما قُتِل السادات ضاعت الدعوة ولم تأت الدولة».(١)

يقسم الدكتور ناصر العمر الجهادَ بحسب ميادينه المتاحة إلى ثلاث حالات: الجهاد في البلاد المحتلة كما في فلسطين، والجهاد في بلاد يحكمها الكفار، والجهاد في بلاد المسلمين، ويقول: إن الحالة الأولى الجهاد فيها مشروع مع ملاحظة أن ذهاب الشباب المسلم إلى تلك المناطق من دول إسلامية أخرى ينتج عنه سلبيات كثيرة. أما الثانية فيتم اللجوء فيها إلى العلماء المعتبرين لدراسة الأمر دراسة وافية؛ تجنبًا للآثار الضارة التي يتحملها المسلمون. ولذلك لا بد من دراسة كل حالة على حدة دراسة شرعية مبنية على اعتبار المصالح والمفاسد، وأما الحالة الثالثة، أي في بلاد المسلمين، فلا يجوز فيها الجهاد؛ لما يترتب عليه من المفاسد العظيمة.(٢)

٨- الحالة الأخرى للاستعداء تتوجه ناحية الدول الغربية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة، وذلك بنقل ساحة العمليات إلى تلك الدول بصورة مباشرة، دون أي مراعاة لتفاوت موازين القوى؛ اعتمادًا على مفاهيم مغلوطة مثل إمكانية أن تنهار تلك الدول أو تفقد قواها من خلال الدخول معها في حرب استنزافية على شاكلة إرسال الطرود المفخخة التي تؤدي إلى إنهاك النظام بتعقيد الإجراءات الأمنية، ورفع كلفتها إلى الحد الأقصى.

إن طبيعة الدول المعاصرة وكيفية تكوينها وهيكلتها تجعل من الصعوبة بمكان أن يحدث انهيار كامل للدولة ما لم تتوفر عوامل عديدة بالإضافة إلى ظرف مواتٍ، والدول الغربية تتمتع غالبًا بمستوى متقدم من الاستقرار السياسي والاقتصادي والتقني، مقارنة ببقية دول العالم، والحالة الافتراضية التي يتصورها منظّرو الحركات المتبنية للعنف، والتي عندها سوف ينهار النظام الأمريكي بحسب توقعاتهم، هي بالأساس حالةٌ تصف بدقة واقعَ العديد من الدول الإسلامية، إن لم يكن حال هذه الدول أسوأ بكثير، ورغم ذلك لم تتعرض أنظمتُها للانهيار، فلماذا لا تقاس هذه على تلك وتتغير القناعات؟

الزخم الفكري والمعنوي الذي يَمُد نهج العنف بأنفاس الحياة لا يزال باقيًا، ولا يزال الواقعُ الإسلامي مهيئًا لظهور جماعات أخرى تتبنى العنف منهجًا ومسلكًا، ما لم يتصد العلماء والمفكرون وقادة العمل الإسلامي لهذه الظاهرة التي تنسف كثيرًا من الإنجازات الحقيقية.

ولا يقتصر الاستفزاز العدائي على الحكومات الغربية فقط، بل يمتد إلى الشعوب أيضًا، ويمكن في خلال العقد الأخير رصد كمّ هائل من التجاوزات والإهانات والتصرفات الدالة على التعصب ضد الإسلام والمسلمين في الولايات المتحدة وأوروبا، ولا يكاد ينقضي شهر دون صدور قانون أو قرار يُقلّص من مساحة الحرية التي كان المسلمون يحظون بها في الدول الغربية، حتى سويسرا التي اشتهرت بحيادها أصدرت في عام واحد قانونين: أحدهما يمنع بناء المآذن، والثاني يقضي بترحيل الأجانب المرتكبين للجرائم(٣)، وفي ألمانيا اعترفت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل بصعوبة دمج المهاجرين المسلمين، وقالت في تحذير واضح لهم: «من المهم فيما يتعلق بالإسلام أن تتطابق القيم التي يمثلها الإسلام مع دستورنا.. فما يطبق هنا هو الدستور لا الشريعة»، وأكدت ميركل على أن ثقافة ألمانيا «تقوم على قيم مسيحية ويهودية وظلت هكذا لمئات إن لم يكن لآلاف السنين».(٤)

(١) حوار مع موقع الإسلام اليوم، ٨-٥-٢٠١٠م.

(٢) حوار مع الدكتور ناصر العمر، مرجع سابق

(٣) وهي وسيلة غير مباشرة للتخلص من المهاجرين المسلمين.

(٤) رويترز ١٠-٦-٢٠١٠م.

وأفاد استطلاع للرأي نَشَرت نتائجَه صحيفة «فايننشيال تايمز دويتشلاند» أن أكثرية الألمان-٥٥٪- يعتبرون المهاجرين المسلمين عبئًا على ألمانيا، وكشف الاستطلاع الذي أعده معهد ألنباخ اعتقادَ هؤلاء أن المسلمين قد كلَّفوا ألمانيا ماليًا واجتماعيًا أكثر مما أنتجوا اقتصاديًا[1].

وهذه التغيرات في المواقف الأوروبية من المهاجرين المسلمين ليست وليدة العقد الحالي، فقد بدأت منذ زمن أبعد، ولكن ممارسات العنف المتتالية -سواء ما يُنفّذ منها أو ما يُكتشف- تُفاقم هذه الحالة، وتطرحها على قائمة أولويات الأحزاب السياسية، ومما يزيد الأمر سوءًا أن هذه الجماعات تسعى -من أجل ضمان نجاح مخططاتها- إلى تجنيد عناصر لم تكن معروفة من قبل بهذا التوجه، وربما لم يظهر عليها سمات التدين بالأساس، ومكمن السوء هنا هو أن هذا الأسلوب يوسّع من دائرة الاشتباه والشك، وبالتالي تتحول قاعدة الاتهام من: أنت متدين إذن أنت مشتَبه به، إلى : أنت مسلم إذن أنت مشتَبه به.

أمر آخر يتعلق بـ«حالة الاستعداء» للغرب، وهو تجافي ذلك مع الحكمة، فليس من المقبول أن يُستثار العدو بصورة مطردة، بينما لا توجد لدى المسلمين قدرة على مواجهته، الغريب أن كثيرًا من رموز التيارات المتبنية للعنف كانوا يعتمدون بصورة أساسية على مناخات الحرية الموجودة في تلك الدول الغربية للتحرك، والحصول على الدعم، وصولاً إلى حيازة جنسية تلك البلاد؛ لأنهم لا يقدرون على ممارسة هذه الأدوار في بلادهم الأصلية، وعلى الرغم من كل ذلك تتم الاستثارة التي يعقبها عجزٌ مطبق لدى المسلمين عن الرد على الاعتداءات السابقة أو الجديدة، وهذا من شأنه أن يُرسّخ معاني اليأس والإحباط، وقبول الذلة، ويُصَعِّب المهمة على كل من يسعى لانتشال الأمة من تلك الحالة حاليًا أو مستقبلاً.

خاتمة:

إن التأمل في حال العمل الإسلامي في العقود الثلاثة الماضية يكشف بجلاء حجم الضرر الفادح الذي تسببت فيه ممارسات العنف أيًا كانت الجماعة التي تمارسه، والمشكلة أن الجماعة التي تُدرك -مُتأخرةً- فداحةَ منهجها فتنأى عنه، وتتراجع عن ممارساتها الأولى؛ لا تؤثر بمسلكها الجديد على الأجيال التالية من الشباب المتحمس، بل تظل المرحلة الأولى من مسيرة جماعات العنف -بالنسبة لهؤلاء الشباب- هي موطن الاقتداء والفخر، هذا يعني أن الزخَم الفكري والمعنوي الذي يَمُد نهج العنف بأنفاس الحياة لا يزال باقيًا، ولا يزال الواقعُ الإسلامي مهيئًا لظهور جماعات أخرى تتبنى العنف منهجًا ومسلكًا، ما لم يتصد العلماء والمفكرون وقادة العمل الإسلامي لهذه الظاهرة التي تنسف كثيرًا من الإنجازات الحقيقية.

هذا التصدي يتنازعه سهولةٌ وعسرٌ.. أما السهل، فهو أن كثيرًا ممن تناقشت معهم من العلماء والدعاة في هذا الشأن متفقين على أن الشباب المتبع لنهج العنف قليلُ العلم ضعيفُ الطلب له، وأن أغلبهم يدرك خطأه ويستدرك خلله إذا ما جالَس العلماء العاملين المخلصين.

أما العسير، فهو أن الأمر ليس مجردَ كلماتٍ تُقال عن نبذ العنف أو حرمة الدماء، بل يجب السعيُ لتكوين ثقافةٍ راسخةٍ عميقةِ الأركان والمفاهيم، ترفض العنف رفضًا مبدئيًا أصليًا ليس مؤقتًا أو ظرفيًا، حتى وإن كانت الغاياتُ المُعلنة تتعلق بنصرة الإسلام والمسلمين، ففضلا عن كون هذه الغايات لم تتحقق من خلال ممارسة العنف طيلة ثلاثة عقود، فإن الله سبحانه وتعالى قد تعبدنا بالغاية والوسيلة، فلا يسوغ والحال هكذا أن تتحول الوسائل إلى غايات، ثم تنقلب لتُدمر الغايات الأولى وتُعرقل من يعمل لأجلها بوسائل وأساليب أخرى.

هذه الثقافة لن تُفيد بشيء ما لم يُسعى لنشرها في أوساط الشباب من الدعاة وطلبة العلم عبر منابر يثقون بها لتحصينهم من الانزلاق إلى مساراتٍ لا يَحمِد عُقباها كلُ من يُضمِر خيرا لهذا الدين.

(١) الشرق الأوسط ٨-١٠-٢٠١٠م.

معلومات إضافية

الأهمية الاستراتيجية لمبادرة الجماعة الإسلامية في مصر بإنهاء العنف:

يشرح الدكتور ناجح إبراهيم ـ أحد قادة الجماعة الإسلامية في مصر ـ الأهمية الاستراتيجية لمبادرة الجماعة ـ والتي منها استقى تنظيم الجهاد ضرورة أن يبادر بالمراجعات أيضًا ـ فيرى أنها مبادرة جاءت كسابقة فريدة من نوعها في الحركة الإسلامية عامة، وفي الحركات السياسية خاصة؛ **وذلك للأسباب الآتية:**

– إن هذه أول حركة إسلامية تراجع نفسها، وتصحّح مسيرتها بنفسها.. وتقوم بعملية نقد ذاتي صحيح.. تقر فيه ما كان صحيحًا من عملها، مثل الدعوة إلى الله، وهداية الخلق إلى الإسلام... وتنفي ما كان في مسيرتها من أخطاء ومثالب.. وتعترف بمسئوليتها عن هذه الأخطاء في صراحة كلَّفتها الكثير في الدنيا.

– هذه أول حركة إسلامية تعترف بكل العلميات التي قامت بها؛ فلم تقل: إن الدولة هي التي دبّرتها من أجل الإيقاع بها، ورسَّخت بذلك مبدأين للتغيير في الإسلام، ومنافيان لنظرية المؤامرة المعروفة، **وهما:**

(أ) مبدأ التغيير الإيجابي: ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

(ب) مبدأ التغيير السلبي: ودليله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

– إن فكرة المبادرة انتشرت في البلاد العربية، وتم تقليدها بحذافيرها في بلاد كثيرة. ونجحت هذه التجربة في هذه البلاد، وتم تدريس بعض كتب المبادرة بها.

– رغم هجوم كثير من أعضاء تنظيم الجهاد على مبادرة الجماعة الإسلامية في بدايتها دون دراسة كافية لها، أو تمحيص حقيقي لمغزاها النبيل، إلا أن هؤلاء عادوا بعد تسع سنوات كاملة ليعلنوا مبادرتهم، ويسيروا على هدى المبادرة.

– تكررت تجربة المبادرة مع الذين قُبض عليهم في قضية تفجيرات طابا وشرم الشيخ؛ حيث قام بعض قادة الجماعة الإسلامية بشرح المضامين الفقهية لكتب المبادرة لهم. وهذا أدى إلى النجاح الباهر لوقف مسلسل العنف في سيناء.

– تُعد مبادرة الجماعة الإسلامية أول سابقة في تاريخ الحركة الإسلامية منذ مائة عام يترسخ فيها مفهوم المراجعة الشرعية والفقهية، والذي كان موجودًا لدى سلف الأمة، ثم غاب عن الأمة فترة من الزمان، ثم اندثر اندثارًا شبه تام في الحركات الإسلامية الحديثة حتى ارتبط مفهوم المراجعة عند أكثرها بمفاهيم غريبة مثل التخاذل أو التنازل عن الشرع، أو مداهنة الحكومة، والسير في ركابها، أو ضعف الإيمان واليقين.

– تم في المبادرة ولأول مرة في تاريخ الحركة الإسلامية حلّ الجناح العسكري، والتنظيم السري للجماعة الإسلامية حلاً حقيقيًا معلنًا مع تسوية مواقف هؤلاء تسوية عادلة، دون إخلال بأي من قواعد الشريعة أو القانون، أو الإجحاف بحق الدولة، أو حق هؤلاء..

الأسباب والعوامل التي وقفت وراء المراجعات في مصر:

يوضح الدكتور ناجح إبراهيم أن هذه الدوافع متعددة، ومنها:

أولاً: إن الاقتتال كان بين أبناء دين واحد ووطن واحد، وإن الدماء كانت تُرَاق كل يوم بلا سند شرعي، في حين أن الشريعة قد صانت هذه الدماء وحمتها وحفظتها. كما أفضى القتال إلى مفاسد عظيمة مثل توقف الدعوة إلى الله، وامتلاء السجون بخيرة شباب هذا البلد، وما نجم عنه من تشريد الأسر وضياع الأبناء، رغم أن الهدف المعلن من هذا القتال هو إخراج المعتقلين من السجون، وكانوا يقدرون ـ آنذاك ـ ببضع مئات، فزاد عددهم إلى آلاف عدة.

ثانيًا: من الأسباب التي دفعت الجماعة للمبادرة ووقف العنف والاحتراب الداخلي نهائيًا هو رغبة إسرائيل في الهيمنة على المنطقة، وإضعاف الدولة المصرية، وتهميش دورها. ولما كان الاحتراب الداخلي يساعد على ضعف الفريقين، الحركة الإسلامية والدولة معًا، فكان وقف العنف نهائيًا.

ثالثًا: الخطر الناشئ من محاولات بسط نفوذ الحضارة الغربية على حساب الهوية الإسلامية انطلاقًا من مقولات: نهاية التاريخ، وصدام الحضارات، وكانت العمليات القتالية بمصر تصبّ في خانة تقوية قيم الحضارة الغربية على حساب القيم الإسلامية.

رابعًا: الخطر الناشئ من بروز سياسة حصار واستئصال الظاهرة الإسلامية، سواء كانت دولة أو حركة أو أقلية، وذلك على مستوى استراتيجيات القوى الدولية المناهضة للإسلام، وكان استمرار العمليات القتالية يجعل المناخ مهيئًا لإتمام هذا الاستئصال، أو إحكام الحصار؛ بدعوى مواجهة الإرهاب والحرب الوقائية ضده.

خامسًا: الخطر الناشئ من محاولات بعض دوائر أقباط المهجر لتوظيف الضغوط الدولية ضد مصر لتحقيق مكاسب غير مستحقة أو مشروعة؛ بدعوى أن الأقباط يتعرضون لعمليات تستهدفهم من الجماعات الإسلامية، والحكومة تتستر على ذلك.

سادسًا: الخطر الناشئ من احتدام الصراع بين دعاة الفكر الإسلامي ودعاة الفكر العلماني؛ حيث يظهر جليًا أن هناك بعض المعارضين للهوية الإسلامية يوظّف العمليات القتالية في مصر لتحريض السلطات على كل ما هو إسلامي لإحراز النصر الحاسم على كل من يدعو للإسلام، وكان واجبًا علينا أن نحرمهم من هذه الفرصة.

سابعًا: الخطر الناشئ من الاضطراب المتزايد في المشهد الاجتماعي بمصر، وذلك باستمرار القتال بين أبناء البلد الواحد بما يخلّفه من أحقاد وضغائن.

الملامح الفكرية الرئيسة لمراجعات الإسلاميين في مصر:

الملامح الرئيسة للمراجعات من الناحية الفكرية، تتمثل في عدد من العناصر وردت في كتابات مختلفة لقيادات الجماعة، أبرزها:

أولاً: وجهت الجماعة الأنظار إلى أهمية النظر في المصالح والمفاسد، وما يُعرف بفقه المآلات (النتائج)؛ بحيث لا يخوض الشباب غمار صدام عنيف يعود ببالغ الضرر عليه، وعلى دينه، وعلى وطنه.

ثانيًا: عارضت المراجعات وبشـــدة ما يقوم به البعض من تفجيرات عشـــوائية تؤدي إلى إزهاق أرواح الأبرياء المســـلمين لأســـباب واهية، ولم تكتفِ الجماعة ببيانات الإدانة فقط، بل سارعت إلى إصدار كتابين: (تفجيرات الرياض) من تأليف د. ناجح إبراهيم، و (استراتيجية القاعدة) من تأليف د. عصام دربالة. وتناول الكتابان هذه القضية الخطيرة من منظور شرعي وواقعي.

ثالثًا: تم إعادة قراءة بعض الفتاوى التي تم تنزيلها على الواقع في الماضي تنزيلاً خاطئًا مما أفضى إلى مفاسد كفتوى «التترس»، وقد تم الخروج بنتيجة مهمة، وهي أن الجيوش المعاصرة في الدول الإسلامية تختلف اختلافًا جذريًا عن جند التتار، وبالتالي فقياس هؤلاء على هؤلاء قياس فاسد.

رابعًا: تم إعادة قراءة بعض المفاهيم كمفهوم حتمية المواجهة. وثبت أنه لا حتمية إلا لما حتّمه الله عز وجل، أو حتّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأكدت الجماعة أيضًا أن عدالة القضية لا تعني حتمية المواجهة.

خامسًا: قضية الحاكمية والعلاقة المفترضة بين الحاكم والمحكوم في ظل تعاليم الإسلام ومبادئه؛ حيث أكدت الجماعـــة أن مجرد ترك الحكم بما أنـــزل الله لا يُعد كفرًا إلا إذا انضم إليه أمور مثل الجحود أو تفضيل حكم البشر على حكم الله. وكذلك نوَّهت إلى أهمية ما يمكن تسميته حاكمية البشر، وأثبت للبشر حاكمية، وأن هذه الحاكمية لا تصطدم بحاكمية الله ســـبحانه إذا عملت في إطارها الصحيح الذي رســـمه الإسلام لها، وأن كلا الحاكميتين تكمّل بعضها بعضًا.

سادسًا: أشارت المراجعات إلى فقه الأحكام السيادية، مثل إعلان الحرب، أو إقامة الحدود والجنايات، والأمن الداخلي والخارجي، وعقد السلام، وما إلى ذلك.

المصدر:

ندوة عقدها مركز الدراسات السياسية والاستراتجية بالأهرام يوم ٣٠ يونيو ٢٠٠٧م، تحت عنوان: المراجعات .. من الجماعة الإسلامية إلى الجهاد، نقلاً عن موقع إسلام أون لاين: انظر الرابط:

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1183483928231&pagename=Zone-Arabic-Daawa/DWALayout